

المختبرون

حبيب علي الراوي
عضو اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين
والاستاذ بجامعة بغداد

هل استطاع الملاحون العرب ابان كشوفهم الجغرافية ان يصلوا الى امريكا ؟
ذلك رأي ذهب اليه بعض العلماء والباحثين اذكر منهم على سبيل المثال المرحوم
الاب انستاس الكرمللي في محاضرة القاها في قاعة الشعب ببغداد ، وكان ذلك في
الاربعينات ، وقد استشهد ببعض المصادر التاريخية التي سوف تأتي على ذكرها
ضمن الهوامش كما ان الصحافة الامريكية اشارت منذ سنوات الى ان احد الاساتذة
هناك قد ذهب الى ما ذهب اليه الاب الكرمللي معززا رأيه بالادلة التي تثبت ان
العرب قد وصلوا الى تلك الديار .

على ان هناك من العلماء والمستشرقين من اشار الى الدور الذي قام به العرب
في الكشف عن امريكا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : المستشرق الروسي
كراتشونفسكي في كتابه تاريخ الادب الجغرافي (١) . وسارتون صاحب الكتاب
المشهور مقدمة في تاريخ العلم والدكتور حسين مؤنس مؤلف « تاريخ الجغرافية
والجغرافيين في الاندلس » المطبوع في مدريد عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م ضمن
منشورات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد .

الحقائق والاساطير في روايات المؤرخين والجغرافيين :

وقد اعتمد هؤلاء العلماء على ما ورد في الكتب العربية القديمة حول الدور
الذي لعبه العرب في علوم الجغرافية والفلك وما يتعلق بها من كشوف ودراسات
واذا كانت قد اختلطت الاساطير بالوقائع في بعض الكتب الجغرافية والتاريخية
فان ذلك لا يدفعنا الى الشك والريبة في كل ما ورد في تلك الكتب من اخبار
واوصاف ، بل نجد في ذكر هذه الاساطير - احيانا - مظهرا من مظاهر الامانة
العلمية التي تقتضيه المؤلف ان يدونها فحين يتعرض المؤرخون للعصور السحيقة
في القدم ولا يجدون بين ايديهم من المدونات والوثائق ما يعتمدون عليه عندئذ
يلجأون الى الروايات التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، ومن البديهي ان مثل
تلك الروايات لا يمكن ان تسلم جميعها من الخيال والمبالغات ، وكذلك الامر في
الكتب الجغرافية فهناك عدد من الجغرافيين الذين لم يتسن لهم ان يطوفوا كل
انحاء المعمورة ، ولا معظمها ، بل في بعض الاحيان حتى المناطق التي يتحدثون
عنها ، كما هي الحال بالنسبة للمؤرخين ، يختلط الواقع بما عليه الخيال على
الناس من صور براقية ومبالغات لا تعتمد على الحقيقة ، ومع كل هذا فان
المؤرخين العرب لم يسلكوا كلهم طريقة واحدة في عرض موضوعاتنا ، بل كان

الكثيرون منهم يحاولون الوصول الى الحقيقة ويسلكون المنهج العلمية لهذا الغرض ولعل في مقدمة هؤلاء ابن خلدون المؤرخ المغربي المشهور .

جهود عربية في مجال الجغرافية والفلك :

وقبل ان نسوق حديث المغررين لابد من الاشارة الى الجهود التي بذلها العلماء العرب في حقل الجغرافية والفلك . فقد بدأ اهتمامهم نحو هذا الحقل من المعرفة في العصر العباسي حين ترجم كتاب « المجسطي » لبطليموس في الجغرافية الفلكية ، على يدي يحيى بن خالد بن برمك الذي اشترك في تفسيره مع ابن حسان صاحب بيت الحكمة ، ومن الآراء الواردة في هذا الكتاب ان الارض كرة على عكس الفكرة التي كانت سائدة آنذاك ، وقد لقيت فكرة كروية الارض قبولا لدى العلماء مما حدا بالمأمون ان ينتدب اكثر من لجنة لمعرفة محيط الارض ، على اساس خطوط الطول التي يبلغ عددها ثلثمائة وستين خطا كل واحد منها يمثل درجة من محيط الكرة وكانت النتيجة التي توصل اليها اولئك العلماء من الدقة بحيث تقارب ما نعرفه اليوم عن محيط الكرة الارضية (٢) ومنذ ذلك العصر حتى يومنا هذا ظهر في العالم العربي عدد غير يسير من الجغرافيين اقتصر بعضهم على علم الجغرافية وحده ، وساهم الآخرون في علوم اخرى ، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الخوارزمي صاحب كتاب صورة الارض الذي اظهر فيه الكثير من الاصاله والابتكار (٣) والكندي الذي الف رسالة في ان العالم وكل ما فيه كروي ، ورسالة في ان سطح ماء البحر كروي (٤) ونصير الدين الطوسي صاحب اول مرصد فلكي في بغداد (٥) والبكري الاندلسي الملقب بالغزال والمسعودي وابن فضلان والاصطخري والمقدسي والبيروني والادريسي (٥) وغيرهم ، وعندما نقرأ الآثار التي تركها هؤلاء العلماء نجد أنهم يأخذون بفكرة كروية الارض على انها حقيقة لا تقبل الجدل وان براهينها واضحة كل الوضوح .

المغرون وسبب تسميتهم :

ونبدأ الآن قصة هؤلاء المغررين ، قبل ان نسردها لابد من الاشارة الى انها وردت بالفاظ متعددة منها « المغرورون » (٦) المشتقة من الغرور ، و « المغربون » (٧) كما ذهب آدم متز اي الضاربون الى جهة الغرب ، وقد استبعدت هاتان التسميتان لانهما لا تنطويان عن حقيقة هؤلاء الجماعة الذين اخذوا على عاتقهم اقتحام المحيط الهادي وغرروا بانفسهم اي خاطروا وجازفوا . ومن هنا كانت تسميتهم المغررين على صيغة اسم الفاعل ، ورجح فريق من الباحثين هذا الاسم أو الوصف .

المسعودي وقصة المغررين :

ولعل اول اشارة الى قصة « المغررين » كانت في كتاب « المسعودي » (- ٣٤٦ هـ) المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وذلك في معرض حديثه عن المحيط الهندي واخبار من غرار وخاطر بنفسه في ركوبه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا وان تفاصيل هذه الوقائع والاسفار في كتابه

★ الصحيح في مراغة وليس في بغداد - (التحرير)

« أخبار الزمان » الذي لم يصل اليه ولو وصلنا لاطلعنا منه على تفاصيل أكثر حول رحلة هؤلاء المغررين المخاطرين بأنفسهم ، ولكنه يتحدث عن رجل من أهل الاندلس اسمه خشخاش وكان من فتيان قرطبة واحدائهم فجمع جماعة من أحداثها وزكب في مراكب استعدها في هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبرة مشهورة عند أهل الاندلس (٨) ويقدر أحد المؤلفين أن زمان هذه الرحلة كان عام ٩٥٦ م أي في القرن الرابع الهجري .

وصف الادريسي لرحلة المغررين :

وقد تضمن كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » تفاصيل أكثر عن رحلة هؤلاء المغررين وذلك في معرض حديثه عن لشبونة وذكر أحد دروبها المعروف بدرب « المغررين » فذكر أن هناك ثمانية شبان ينتمون إلى عمومة واحدة وقد عزموا أن يركبوا بحر الظلمات ، ليطلعوا على ما فيه من العجائب وليتمكنوا من معرفة نهايته ، فاتجهوا نحو الشرق مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوما بلغوا موضعا صخريا شديدا الظلمة ، ثم اتجهوا نحو الجنوب مدة اثني عشر يوما حتى بلغوا جزيرة تسمى جزيرة الغنم ، ذلك لأنهم شاهدوا فيها قطعانا من الغنم تختلف عن غيرها من حيث الصورة وطعم اللحوم ، ثم توغلوا اثني عشر يوما أخرى حتى بلغوا جزيرة لم يذكروا اسمها ، فأسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة وعندما عرض أمرهم على حاكم الجزيرة أمر بترحيلهم معصوبي الأعين إلى الغابة التي بلغوها بعد إبحار دام ثلاثة أيام بلياليها وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبي مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم في البقعة التي قام عليها فيما بعد ميناء أسفي (٩) .
وهناك إشارات إلى أسفار أخرى لكشف البحر المحيط منها رحلة سليم الاسواني سنة ٩٧٥ الذي وصل إلى إفريقية عن طريق المحيط الهندي (١٠) .

افتراضات حول الرحلة :

وعلى أية حال فإن الادريسي قد قص علينا قصة هؤلاء المكتشفين على أنها جزء من الواقع في جغرافيته ، وإن كان المستشرق الروسي كراتشوفسكي يفترض أن هناك نقاطا عديدة منها تدخل في الأدب الشعبي Folklore العالمي للقرون الوسطى وذلك لأن هناك نقاطا طريفة مشتركة بينها وبين رحلة القديس براندين وهي إحدى الأساطير الأوروبية المبكرة مما يشير إلى مصدر مشترك بينهما على رأي دي خوي De Goeje ولكنه من جهة أخرى يرى فيها أمورا واقعية تحتاج إلى الفرض والتخمين فهو يفترض أن يكون زمان الرحلة في القرن العاشر الميلادي ، كما أن الجزيرتين اللتين أشير إليهما الأولى منهما جزيرة ماديرة Madiera والثانية إحدى جزر الكناري Canaries وذلك اعتمادا على رأي Beasley (١١) فيما يرى الدكتور حسين مؤنس أن الجزيرة الأولى هي إحدى جزر آزوروس (أي الجزائر الزرقاء) مستبعدا وصولهم إلى جزيرة ماديرا لأنها أقرب إلى سواحل إيبيريا بينما يوافقه في أن الجزيرة الأخرى التي وصلوا إليها هي إحدى جزر الكناري .

وإذا كان من غير المحتمل أن يكون أولئك المكتشفون من العرب قد وصلوا إلى سواحل أمريكا أو بعض جزرها ، فذلك أن المدة التي قضوها في البحر وتغيير اتجاههم نحو سواحل افريقية يستبعد معها أن يبلغوا تلك الشواطئ مهما بلغت سرعة المركب الذي ابحروا فيه ومهما كانت قوة الرياح موالية لهم (١٣) .

دور العرب في كشف المحيط الاطلسي :

ولكن هذه الرحلة وغيرها من الرحلات التي قام بها العرب والمسلمون قد مهدت الطريق لكشف العالم الجديد ، ذلك أن خروج المسلمين في المحيط الاطلسي كان كثير الحدود لأغراض علمية أو تجارية كما أن ملاحى المحيط الهندي يدينون بالكثير من معلوماتهم لأهل الاندلس والمغرب في الزمن القديم (١٤) .

كروية الارض في الفكر العربي :

ولا يقف دور العرب عند هذا الحد في التمهيد لكشف العالم الجديد بل أن نظرية كروية الارض كانت قد اخذت مكانها في الفكر العربي منذ أن ترجم كتاب « المجسطي » الذي اشرنا اليه ، ونلتمس ذلك في المؤلفات العربية التي وضعت منذ القرن الثاني للهجرة ، فالجاحظ يقول في كتاب التربيع والتدوير « وجدنا الافلاك وما فيها والارض وما عليها على التدوير دون التطويل » (١٥) وأما الكندي فإن له أبحاثا متعددة حول الفلك وكروية الارض ومنها رسالة أن العالم وكل ما فيه كروي ورسالة في أن سطح ماء البحر كروي ، ورسالة أخرى في تسطيح الكرة ، كما أن له كتابا في صناعة بطليموس الفلكية ، ولكن كثيرا من تلك الكتب قد ضاع بمرور الزمان وتوالي الاحداث .

انتقال الافكار الجغرافية الى الاندلس :

هذه الافكار المتعلقة بكروية الارض قد انتقلت الى الاندلس ، وفي هذا الصدد يقول ابن طفيل في قصة حي بن يقظان (١٦) قد ثبت بالبراهين القاطعة ، أن الشمس كروية الشكل ، وأن الارض كذلك ، لكن حجم الشمس اكبر من حجم الارض وأن الجزء المقابل للشمس الذي يبلغ أكثر من نصف الارض هو الذي يستمد النور منها ٠٠٠٠ » أما ابن خلدون فيقول « قد تبين في كتب الحكماء والناظرين في احوال العالم أن شكل الارض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء ٠٠٠ » وإذا كان هنالك تعدد غير يسير من العلماء ممن يؤمنون بكروية الارض فلا شك انها هناك غيرهم لا يؤمنون بذلك كما نجد في الابيات التي هجا فيها ابن عبد ربه ابا عبيدة البلاسي لانه كان يقول بكروية الارض (١٧) « وعلى اية حال فإن كولومبوس قد عاش في بيئة متأثرة بعلماء العرب الذين قالوا بكروية الارض ، وكان يقينه من صحة الفكرة حافزا له أن يبحر في المحيط الاطلسي لانه سيلقى أرضا يابسة في طريقه أو يعود الى النقطة التي انطلق منها (١٨) .

والى جانب هذا فإن الخرائط الجغرافية الخاصة بالملاحة ، والتي لم يكن في مستطاع الملاحين أن يقتحموا البحار الواسعة كالمحيط الهندي دون الاعتماد

عليها ، كان للعرب لا سيما ملاحي المغرب والاندلس ، حظ وافر من المعلومات التي تشتمل عليها تلك الخرائط ، وقد كانت السفن التجارية تلعب دورا بارزا في هذا المضمار ، فمن المعلوم ان تلك السفن كانت تمر من باب المحيط بمحاذاة الشواطئ الافريقية وفي المحيط الهندي والبحر الابيض والبحر الاحمر ، حيث تغدو وتروح محملة بالسلع والبضائع (١٩) .

اثر الافكار الجغرافية العربية على رحلة كولومبوس :

ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة ان يخرج كولومبوس مع اصحابه ميممين شطر المحيط الاطلسي ، الواسع الارحاء ، ولم يكن من قبيل الصدفة كذلك ان يمد كل من فردناند وايزابيلا يد العون والمساعدة الى كولومبوس وصحبه لخوض هذه المغامرة ، فلا بد ان تكون هنالك دراسات علمية تنبئ ان الارض كروية ، ولا بد ان الذين ساهموا مع كولومبوس قد اعتقدوا بهذه الفكرة ، ولا بد ان ملكة وملك اسبانيا كانا مؤمنين بهذه الفكرة التي تبناها العرب ونشروها في الاندلس والتي مهدت السبيل امام كولومبس ليصبح اعظم مكتشف في تاريخ العالم كله (٢٠) .

وهكذا يعتمد الدور الذي قام به العرب في كشف امريكا على الآراء التي نشروها حول كروية الارض ، والاسفار التي قاموا بها في عرض المحيط والدراسات الجغرافية حول خطوط الطول والعرض ، والخرائط الملاحية التي كان للملاحين العرب النصيب الاوفر في معلوماتها لا سيما ملاحي الاندلس والمغرب . اما القول بانهم قد وصلوا العالم الجديد فانه فرضية تحتاج الى اثبات ، هذا الى ان العرب كانوا يستخدمون البوصلة البحرية ، ولعلمهم قد استخدموها قبل الاوربيين ، فقد كان الادريسي يستخدمها مع الخرائط البحرية وقد اشار اليها ابن خلدون في مقدمته (القسم المتعلق بالجغرافية) وبذلك يكون العرب قد مهدوا السبيل امام كشف العالم الجديد الذي يطلق عليه اليوم اسم امريكا (٢١) . وهناك محاولة جديدة يقوم بها الرحالة الكندي (ديتريش دمبرو) لاثبات ان (الفينيقيين) كانوا اسبق من غيرهم في الوصول الى امريكا (٢٢) وربما يتوصل الباحثون في المستقبل الى براهين او معلومات تلقي ضوءا اكثر على هذا الموضوع (٢٣) .

الهوامش

- (١) نقله الى العربية في جزئين صلاح الدين عثمان حاشم وطبع في القاهرة عام ١٩٥٧ ضمن أعمال لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وباختيار الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية .
- (٢) انظر القفطي في كتابه - تاريخ الحكماء - مادة - يحيى بن منصور - وكارلونلينو ، علم الفلك ص ٢٨١ .
- (٣) الادب الجغرافي ١٠٣/١ .
- (٤) التصانيف المنسوبة الى فيلسوف العرب (الكندي) للاب رتشارد مكارثي اليسوعي ، بغداد ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .

- (٥) انظر مواضع متفرقة من الادب الجغرافي .
- (٦) مروج الذهب للمسعودي ٢٥٨/١ و ٣٢٧/١ .
- (٧) الادب الجغرافي ١٣٧/١ وقد استبعد كراتشوفسكي ان تكون هذه التسمية صحيحة .
انظر كتاب الحضارة الاسلامية تأليف آدم متز وترجمة ابو ريده ٦/٢ (طبعة القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م) .
- (٨) انظر مروج الذهب للمسعودي ٩٨/١ ، طبعة القاهرة ١٩٣٨ ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، وليس فيها ذكر لاسم الخشخاش ، ولكنه ورد في كتاب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٨ اعتمادا على سارتون ٣ : ١١٥٠ وقد اشار الى ذلك كراتشوفسكي ١٣٧/١ .
- (٩) جغرافية الادريس طيبة دوزي ص ١٨٤ نقلا من كراتشوفسكي ١٣٦/١ وانظر متز .
الحضارة الاسلامية (الترجمة العربية) ٣١٨/٢ .
- (١٠) مؤنس ٢٧٨ - ٢٧٩ .
- (١١) Sarton: An Introduction to the History of Science II, p. 1032.
وانظر كراتشوفسكي ١٣٧/١ .
- (١٢) مؤنس ٢٧٦ - ٢٧٧ .
- (١٣) المصدر نفسه .
- (١٤) مؤنس ٢٧٨ .
- (١٥) مجموعة رسائل الجاحظ ، كتاب الترييح والتدوير ص ٩٣ ، الطبعة الاولى ، على نفقة الساسي ، د . ت مطبعة التقدم بمصر .
- (١٦) قصة حي بن يقظان ، تحقيق احمد امين ص ٦٩ .
- (١٧) صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ص ٦٦ .
- (١٨) مؤنس ١٣٤ .
- (١٩) Beasley p. 533. ومؤنس ٢٧٨ .
- (٢٠) مؤنس ٢٧٦ .
- (٢١) مؤنس ٢٧٨ .
- (٢٢) ذكرت جريدة الثورة العراقية بتاريخ ١٩٧٢/٨/١ والعدد ١٢٠٨ ، اشارة الى ما اورده وكالات الانباء مرة اخرى ، حول وصول الرحالة الكندي (ديتريش دمبرو) الى دمشق متوجها الى العقبة ، حيث يبدأ رحلته على قاربه الخاص (فينيقيا) متوجها الى الولايات المتحدة ليثبت ان العرب الكنعانيين (الفينيقيين) هم أول من وصل الى القارة الامريكية عبر قواربهم التقليدية .
- (٢٣) في العدد ١٦٩ من مجلة « العربي » الصادرة في الكويت مقال بعنوان « العرب وكشف امريكا » بقلم « سمير عطا » وفيه معلومات قيمة حول الموضوع .
- وقد ورد في العدد « ١٩٥٢ » من جريدة « الجمهورية » الصادرة في بغداد بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢٦ ما نصه :
- « اعلن الرحالة الكندي ديتريش دمبرو » عند وصوله وعائلته الى ميناء البصرة في رحلة حول العالم : ان هدفه اثبات أن العرب أول من اكتشف القارة الامريكية .
- وقال لمراسل وكالة الانباء العراقية : ان العرب اكتشفوا القارة الامريكية آنذاك بعد اكتشافهم رأس (الرجاء الصالح) قبل (فاسكودي كاما) بحوالي عشر سنين »
- وهكذا نلاحظ ان محاولة « الفينيقيين » أو العرب الكنعانيين كانت أسبق من محاولة عرب الاندلس لكشف القارة الجديدة .

★ ★ ★